

جمالية الاستهلال في ديوان "عدي بن زيد العبادي"

"The Aesthetics of Initiation in the Diwan of Uday bin Zaid Al-Abadi"

ط.د/ دلال حوحو¹ ، د/آسيا جريوي²¹ محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، dalal.houhou@univ-biskra.dz² محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، assia.djerioui@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2021-10-21 تاريخ القبول: 2024-02-18 تاريخ النشر: 2024-06-01

ملخص البحث

يعتبر الاستهلال اللبنة الأولى للنص الشعري؛ فهو كالدال مدلوله القصيدة الشعرية ولدراسته نقف على مجالات لغوية مختلفة (نحوية، تركيبية، دلالية، تداولية، جمالية)، وهذا ماحولنا الوقوف إزاءه عند "عدي بن زيد العبادي"؛ فكيف تتجلى جمالية الاستهلال ومجالاته عنده ياترى؟

كلمات مفتاحية: جمالية ، الاستهلال ، مجالات ، دلالية ، تداولية.

Abstract:(Do not exceed 150 words)

The initiation is the first building block of a poetic text It is the signifier of the poetic poem To study it, we stand on different fields (grammatical, syntactic, semantic, pragmatic, aesthetic) And this is what prevented us from standing in front of Uday bin Zaid Al-Abadi How is the aesthetic of the initiation and its domains manifested?

Keywords: aesthetic, initiation, areas, semantic, pragmatic.

1. مقدمة:

يعد الاستهلال اللبنة الأولى والأساس في القصيدة العربية، فهو المفتاح للولوج إلى النص، والجسر الرابط بين مكوناته يحمل في طياته قيم جمالية وفكرية مختلفة، باختلاف موضوعات النص وأغراضه، ولقد

* المؤلف المرسل: دلال حوحو

برع الشعراء في نظم القصائد قديما وحديثا و اختلف الاستهلال بين التراث والحدائث في الشعر، غير أن الشعر العربي القديم تميز بحلة جمالية وبطابع خاص، يميزه عصره من قوة في البيان والبلاغة وجزالة اللفظ.

لقد اختلف الشعراء في قصائدهم بلازمة الوقوف على الطلل التي انزلق عنها بعض الشعراء في عهد التجديد في القصيدة العمودية وبدأ تكسير البناء الفني لها بداية بالطلل فكان الاختلاف في الاستهلال بالخمريات والغزليات ووصف الطبيعة، ولعل من الشعراء الذين ساروا على نهج التجديد "عدي بن زيد العبادي" (ت35ق.هـ-587م) الذي اختلف بطابع جديد في الاستهلال وانزلق عن قاعدة الطلل، فما الطابع المتميز في استهلال قصائد "عدي بن زيد العبادي" ياترى؟.

وماهي الوسائل التعبيرية الجمالية والأساليب الواردة في استهلال أشعاره؟.

وقبل الوقوف على دراسة جمالية الاستهلال لدى الشاعر "عدي بن زيد العبادي" نقف على ضبط المصطلحات الآتية :

2. مفهوم الجمالية (Aesthetics):

1.2 المفهوم المعجمي:

ورد مفهوم الجمال والجمالية في معجم (لسان العرب) "لابن منظور" في حرف (الجيم) في مادة (ج.م.ل) نحو قوله: ((وفي الحديث: جاء بناقة حسناء جملاء، قال ابن الأثير: والجمال يقع على الصور والمعاني؛ ومنه الحديث، 'إن الله جميل يحب الجمال، أي: حسن الأفعال كامل الأوصاف (...))، والجمالة: المعاملة بالجميل، الفراء: الجامل الذي يقدر جوابك فيتركه إبقاء على مودتك...))¹. ومنه فالجمال والجميل هو حسن الصفات والأفعال في صورة ترتاح لها النفس.

2.2 المفهوم الاصطلاحي:

ويرد مفهوم الجمال والجمالية في الاصطلاح بنوع من التمايز والتباين ، حيث ((تحدد فكرة الجمال مفاهيم الجميل والجذاب ؟، وهي تنهض على أساس ثقافي، وترتبط بالاحساس والشعور، إذ يعدّ الشيء جميلا إذا ما أيقظ شعورا بالفرح، وعلى هذا الأساس حدد التأثير الجمالي بوصفه صدمة إدراك تحدث عند إدراكنا للتقابل بين خصائص الموضوع الجمالي وتفاعلاتها مع الخبرة الذاتية

للفرد)²، (...) ((أما الجمالية فهي مفهوم أوسع من الجمال ، إذ لا تشير الجمالية إلى الجميل حسب ، ولا إلى مجرد الدراسة الفلسفية لما هو جميل مهما كانت وجهة النظر ومهما تكن النتائج ، ولكن إلى مجموعة معينة حول الفن والجمال ومكانتها في الحياة))³.

3. مفهوم الاستهلال (Prologue):

1.3 المفهوم المعجمي:

ورد في (لسان العرب) معنى الاستهلال في حرف الهاء مادة (هـ، ل) نحو قوله: ((وفي حديث الاستسقاء: فألف الله السحاب وهلتنا، وفي حديث: الصبي إذا وُلد لم يورث ولم يرث حتى يستهل صارخا، و هلّ السحاب بالمطر، وهلّ المطر هلا، وانهل بالمطر انهلالا، واستهل: وهو شدة انصبابه (...)) ويقال استهلّت السماء وذلك في أول مطرها، واستهل الصبي بالبكاء: رفع صوته وصاح عند الولادة))⁴، يتضح من هذا القول أن الاستهلال أول الشيء وبدايته.

2.3 المفهوم الاصطلاحي:

يعتبر الاستهلال ((مطلع النص الأدبي، ويعطي الانطباع الأولي للنفس، فهو عامل مهم في إثارة التخيلات المناسبة، وهو يتعلق ببنية النص والغرض الذي يصبو إبلاغه لهذا اشتراط فيه أن يبتدئ الشاعر أو الكاتب بما يدل على الغرض، وقد عُيِّنَ النقد العربي القديم بالاستهلال عناية فائقة في حدود مصطلحات (حسن الابتداء)، (براعة الاستهلال)، و (الانفتاح)، و (كمال الاستفتاح) وعدّه الأساس الذي ينبنى عليه النص، وربطه بالحالات النفسية لدى المتلقي، وبالبناء الكلي للنص))⁵.

ولعل الاهتمام بالاستهلال لارتباطه بالجانب السيكلوجي للذات والمتلقي في افتتاح القصائد الشعرية التي تجذب القارئ والسامع لها وتعود جذور هذا الاهتمام إلى ((النقد اليوناني، وتبلور على شكل مصطلح بلاغي على يد "أرسطو" (Aristotele) في كتابه (الخطابة) ، إذ انحصر اهتمام "أرسطو" بالاستهلال في هذا الكتاب دون كتابه الآخر (فن الشعر)))⁶. فنجدته يقول:

((الاستهلال هو إذن بدء الكلام؛ وينظر في الشعر: المطلع؛ وفي فن العزف على الناي: الافتتاحية فتلك كلها بدايات كأنها تفتح السبيل لما يتلو، والافتتاحية شبيهة بالاستهلال في النوع البرهاني، ذلك أن عازفي الناي، إذا عرفوا لحنًا جميلًا وضعوه في افتتاح المعزوفة كأنه لحنها، وينبغي في الأقوال البرهانية أن يجري التأليف هكذا: نبدأ بالتعبير عما نقصد إليه ثم نسترسل (هيلانه) لا يُستقرطيس، لأن أصحاب المراء لا شأن لهم بهيلانه، وحتى إذا استطرد الخطيب، فلا بأس من قطع رتوب الخطبة))⁷.

ويشير "ياسين النصير" إلى مسألة بدء الكلام في مفهوم الاستهلال بقوله: ((وكي تتوضح الصورة بما نعينه ببدء الكلام نقول أن الاستهلال متعلقات عديدة ولا تتم معرفة الاستهلال إلا بمعرفتها والمتعلقات هي:

- 1/ مبدع النص (المرسل).
- 2/ اختيار الموضوع وهدفه (الرسالة).
- 3/ نسيج البناء (بناء الرسالة).
- 4/ الرسالة المتضمنة في النص (الهدف)
- 5/ القارئ (متلقي الرسالة).

فالمبدع لا يختار إلا الكلام الذي يُشحن النص كله))⁸.

وفي الدراسات النقدية، نجد أن النقد العربي القديم اهتم بالبعد النفسي الذي يحدثه الاستهلال، إذ يرى "ابن رشيق" أن حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطيّة النجاح لأنه أول ما يفرغ السمع، أما عند أصحاب النظرية النقدية الحديثة نجد أن بنية الاستهلال تتكسّى على محتوى النص وأسلوبه، وهو له وظيفتان؛ الأولى هي شدّ انتباه المتلقي إلى الموضوع، أما الثانية فهي إشارة بأيسر القول إلى ما يحتويه النص.⁹

وللاستهلال بنية فنية وأسلوبية خاصة به تجعله متميزا عن بقية عناصر النص ومكوناته((هذه

البنية تتجلى في:

-أن محتوى النص وأسلوبه هما اللذان تولدت منهما مفردات الاستهلال؛ فالاستهلال نتاج

للنص الشعري.

-وأن هذه المفردات تمتد داخل النص كخيوط السدى لتولد عنها صورا أو مفردات جديدة

منبثقة منها.

فالاستهلال باعتباره بنية خاصة بالنص موقعان: موقعه في أول الكلام أولا، ثم موقعه داخل

النص باعتباره حاملا لنوى النص كلها ثانيا))¹⁰.

ولدراسة جمالية الاستهلال وبنيته في الديوان نقف على المجالات الآتية:

4. مجالات الاستهلال:

1.4 المجال النحوي والتركيب:

يتعلق هذا المجال بمجموعة من ((القوانين التي تضبط عملية الصحة النحوية للكلام من أجل

أن يكون مقبولا لدى مستخدمي اللغة المستعملة في التعبير، وبعبارة أخرى؛ دور هذا المستوى

الإشراف على مجموع العلائق التي يمكن أن تحدثها الكلمة مع نظيراتها في التركيب إلى جانب

القوانين التي تسهر على سلامة تحويل الجملة أو العبارة إلى نظير لها مولد جديد))¹¹.

ولقد استعمل الشاعر في الاستهلال أساليب تعبيرية تركيبية بداية من الكلمة التي تجذب

انتباه القارئ إلى الجملة، منها: (الأمر، النداء، الاستفهام)، وهي كالاتي:

1.1.4 الأمر:

ومن صور الأمر في الاستهلال، النص الشعري الآتي:¹²

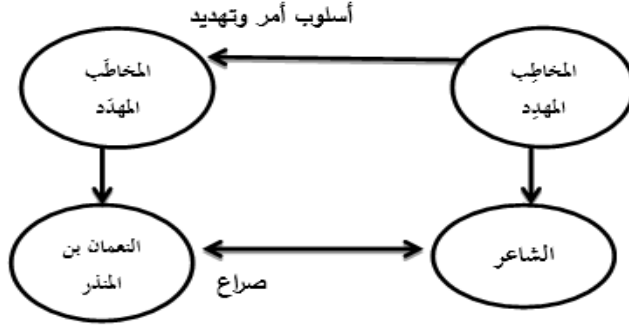
ذريني إنَّ أمرك لن يطاعا *** وما ألفتيني حلمي مضاعا

وما دهري أطبأنك غير أنني *** بنى لي والدي بيتا يفاعا

أخذت بدأبه فورثتُ عنه *** مكارم لم تكن منه ابتداعا

نلاحظ أسلوب الأمر في الاستهلال في قوله (ذريني) وهو أمر غرضه الفخر والاعتزاز بالذات

وبوالده وورد هذا الأسلوب أثناء تهديده "للنعمان بن المنذر" وأهل بيته، كما في الشكل:



ونجد الأمر في الاستهلال في النص الشعري، الآتي :¹³

قل لأُم البنين إن حان موتي *** تبكني للنزال تحت العجاج

وللبس الدّلاص يغشى ثيابي *** فوقها بيضة كضوء السّراج

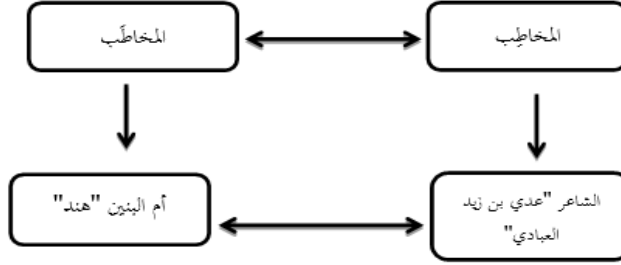
ولرفعي على الرّباوة ناري *** علما للمفضلّ و الليل داج

نجد في الاستهلال النص الشعري أسلوب الأمر في قول الشاعر(قل) وهنا يخاطب أم البنين

(هند بنت النعمان) حمل أسلوب الأمر الرثاء والحزن، وهو البعد السيكولوجي للحس المأساوي

للذات بأن ترثي نفسها كما يوصي الشاعر أم البنين بالبكاء، ويمكن تحديد ذلك في الشكل الآتي:

أسلوب أمر أثناء الوصية (مرحلة الحياة)



تنفيذ الوصية (بعد الموت)

2.1.4 الاستفهام:

ومن أدوات الاستفهام (من ، ما ، ماذا ، أين ، متى ، أيّان ، كيف ، كم ، أي)، والتي ترد في الأساليب التعبيرية للاستفسار ، وطرح تساؤل حول موضوع ما ، وقد تستخدم لأغراض مختلفة، وفي الديوان نلاحظ ندرة الاستفهام في الاستهلال ، ومن النصوص الشعرية ، نذكر :¹⁴

من لقلب دنف أومعتمد *** قد عصى كل نصيح ومفد
لست في سلمى ولا جارتها *** سامعا فيها إلى قول أحد
راعني منها بنان ناعم *** كسيور القد في مثل البرد

يرد أسلوب الاستفهام في قوله (من لقلب) وهو التساؤل عن حاله والتحسر لمرضه وعصيانه

لكل نصيح له ، وفي موقف آخر نجده يقول :¹⁵

من رآنا فليحدث نفسه *** أنه موفٍ على قرن زوال
وخطوب الدهر لا يبقى لها *** ولما تأتي به صمّ الجبال
رُبَّ ركبٍ قد أناخوا عندنا *** يشربون الخمر بالماء الزلال

ورد أسلوب الاستفهام في قوله (من رآنا) وهو التساؤل في الاستهلال يوضح حالته النفسية

لمن يراه يحدث نفسه اعتقاداً أنه مشرف على الزوال، و نجد البعد السيكلوجي في الاستهلال في

شدّ انتباه القارئ أو السامع للبيت في استنطاقه للقبور في حوار مع نفسه على لسان القبر أثناء تجواله مع النعمان.

3.1.4 النداء:

ورد النداء في شعر "عدي بن زيد العبادي" متفاوت في نصوصه أما في الاستهلال فهو نادر ، ومن ذلك نذكر :¹⁶

يَالْبَيْنى أَوْقَدِي النَّارَ *** إِنَّ مِنْ تَهْوِينٍ قَدْ حَارَا
رُبَّ نَارٍ بَتُّ أَرْقَمَهَا *** تَقْضُمُ الْهِنْدِيَّ وَالْغَارَا
عِنْدَهَا ظَبِي يُوْرَثُهَا *** عَاقِدٌ فِي الْخَصْرِ زَنَارَا

ورد أسلوب النداء في الاستهلال نحو قوله: (يالبينى أوقدي النار) مخاطب المرأة في مدح موقد النار الذي وصفه بأنه يوقد بالقطر والمندل والغار، فالاشتعال النار بكثرة الحطب مؤشر إلى الجود والكرم للمرأة .

2.4 المجال الدلالي:

يهتم المجال الدلالي بدراسة ((مجموع العلاقات القائمة بين المعاني والأشياء التي تعينها في إطار سياق اللغة، وباعتبارها جملة، مفصّولا ذلك عن سياق الاستعمال إلا أن المعنى المتوصل إليه في هذا المستوى، قد يحمل بعض الزيف، لاسيما إذا راعينا انقطاع الإحالة وغياب المراجع وحضور المجاز بمختلف أنواع في الخطاب الأدبي على وجه الخصوص))¹⁷، ونجد في هذا الجانب استعمالات للكناية والمجاز والاستعارة في نصوص مختلفة ، وفي الديوان نقف على الاستهلال الآتي :¹⁸

أَنّى طَرَقْتُ ذَوِي شَجِنٍ تَعُودُهُمْ *** وَكُنْتُ عَهْدِي قُطُوفَ الْمَشِي

محيارا

أَمْ كَيْفَ جَزَتْ فَيُوجَا حَوْلَهُمْ حَرَس *** وَتَمَرَا بَابَهُ بِالشَّكِّ صَرَارَا

نلاحظ من الاستهلال وجود استعارة مكنية في قوله: (طرقت ذوي شجن تعودهم) حذف الباب وترك لازمة تدل عليه، هي (الطرق)، حيث شبه القلب المتألم بالباب الذي يطرق، وهي إشارة إلى الألم والحزن الشديد أثناء مواساته من طرف الحبيب الذي زاره ليخفف ذلك الألم عليه. كما نجد أيضا استعارة تصريحية في قوله: (قطوف المشي) في الاستهلال، حيث القطف يكون للثمار حذف المشبه وترك لازمة تدل عليه، هي القطف، وهي كناية عن السير البطيء.

3.4 المجال التداولي:

وهو الذي يدرس ((علاقة العلامات باستعمالاتها ومقاماتها وأطرافها التداولية، أو هو يعني بدراسة العلاقة بين اللغة وبين الناطقين بها والمؤلفين لها، وتعبير آخر يمكن أن يكون موضوع التداولية هو نفس موضوع الدلالة الثابت، مضافا إليه سياق الاستعمال))¹⁹.

وفي الديوان نجد المجال التداولي في الاستعمال يتجلى في النص الشعري الآتي :²⁰

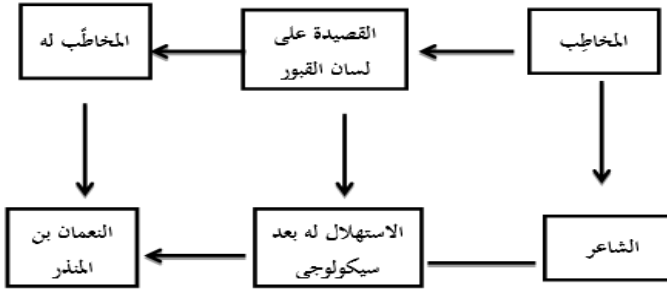
من رآنا فليحّث نفسه *** أنه موفٍ على قرن زوال

وخطوب الدهر لا يبقى لها *** ولما تأتي به صُمم الجبال

رُبّ ركبٍ قد أناخوا عندنا *** يشربون الخمر بالماء الزّلال

نلاحظ استنطاق الشاعر "عدي بن زيد العبادي" للقبور حيث يتكلم على لسانها، وورد ذلك أثناء خروجه مع "النعمان بن المنذر"، وحدث أن مرا بمقابر، وقال "عدي بن زيد العبادي" "للنعمان" أتدري ماتقوله هذه المقابر،²¹ قال لا فجاء رد الشاعر في نظم هذه الأبيات التي استهلها بقوله: (من رآنا فليحدث نفسه...).

فالمجال التداولي يتجلى بين المخاطب (الشاعر) والمخاطب له (النعمان بن المنذر) أثناء تجوالهما ومرورهما بالقبور واستنطاق الشاعر على لسانها ليعبر عن خفايا وآلام القبور التي تعكس حالته النفسية، ومنه يمكن تحديد المجال التداولي في الشكل الآتي:



يوضح هذا الشكل أن أثناء استنطاق الشاعر للقبور في قصيدته قد استهلها ببعد سيكولوجي مؤثر يجذب انتباه القارئ أو السامع للنص في قوله: (من رآنا فليحدث نفسه أنه موفٍ...) في شكل مناجاة داخلية للذات قبل البوح.

5. جمالية الاستهلال:

في الحديث عن الجمالية في الشعر، وبالأخص الاستهلال، نقف على العناصر والوسائل التعبيرية الجمالية فيه، ومن ذلك اختياره للمعجم اللغوي في تصوير معاناته في السجن، نلاحظ ذلك في الصورة الشعرية للاستهلال الآتي :²²

طال ذا الليل علينا فاعتكر *** وكأنني ناذر الصبح سمر

يشير الاستهلال إلى الزمن الطويل في الليل الذي اشتد سواده وهو ينتظر في قوله: (طال ذا الليل علينا فاعتكر) تقديم ماحقه التأخير في طول الليل مؤشر للزمن الطويل فاختيار المفردات (طال، الليل، اعتكر)، واعتكر هنا بمعنى اشتد له أهمية في تصوير المعاناة لدى الشاعر في سجنه الذي يضيق عليه أنفاسه، ولقد ربط الاختيار بالتحديد الزمني الذي يكشف المكونات النفسية لدى الشاعر. وجمالية الاستهلال في اختيار المفردات وتركيبها يقدم قوة في التعبير والبيان الذي يعكس الجانب السيكولوجي لدى الشاعر في السجن.

وما سبق نلاحظ أن الاستهلال يمثل مفتاحا للولوج إلى النص الشعري، حيث يكشف لنا الجانب الدلالي والتركيب والتداولي والجمالي له أسلوب الشاعر والطابع في التأثير على المتلقي

والسامع لأبياته التي حملت قيم سيكولوجية تعكس معاناته في السجن، ومن نتائج هذه الدراسة نذكر:

- 1/ يعد الاستهلال مطالعا للقصيدة يقدم الانطباع الأولي للنفس.
 - 2/ للاستهلال بعدا سيكولوجيا وهو ما أشار إليه نقاد الشعر العربي القدامى.
 - 3/ في دراسة الاستهلال نقف على المجال النحوي والتركيبى والدلالي والتداولي والجمالي له.
 - 4/ الاستهلال يجذب انتباه القارئ بقوة بيانه وبالاختيار الجيد لمفرداته.
 - 5/ تتجلى جمالية الاستهلال في التصوير الجيد المعبر عن المكنونات الداخلية للشاعر.
- ومنه فقد كان الاستهلال محط اهتمام النقاد والبلاغيين القدامى، واعتبروا اتقانه واجادته مقياسا لجمال القصيدة ثم سعوا لوضع شروط ومعايير تحقق له قيمته الفنية والبلاغية جاعلين من اجادة ذلك رأس البديع فيما بات يعرف حينها ببراعة المطلع وحسن الابتداء²³، لذا كان الاهتمام بجزالة اللفظ ورقته وصحة السبك ووضوح المعنى. وكذا التصوير الجميل لجذب انتباه القارئ والتأثيره فيه وهو ما يعرف بالنظم الجيد للقصائد من جهة وللاستهلالها من جهة أخرى.

6. الهوامش:

- 1 ابن منظور، لسان العرب، مادة (ج،م،ل)، دار صادر بيروت، الجزء الثالث، ص 201.
- 2 يادكار لطيف الشهرزوري، جماليات التلقي في السرد القرآني، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2010، ص 17.
- 3 المرجع نفسه، ص ن.
- 4 ابن منظور، لسان العرب، مادة (ه، ل،ل)، إعداد: عبد الله علكبير وآخرون، حرف الهاء، دار المعارف، القاهرة، دط، 1119، ص 562. وينظر: إسلام ويب، لسان العرب، حرف الهاء، هـ، الجزء رقم 15، من الموقع: يوم الأربعاء 20/10/2021، ساعة 22:45 <https://islamweb.net>
- 5 يادكار لطيف الشهرزوري، جماليات التلقي في السرد القرآني، ص 145.
- 6 المرجع نفسه، ص 146.
- 7 أرسطو طاليس، الخطابة، تحقيق، عبد الرحمان بدوى، الترجمة العربية القديمة، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، 1979، ص 130.
- 8 ياسين النصير، الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي، دار نينى للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، دط، 2009، ص 20.

- 9 ينظر: يادكار لطيف الشهرزوري، جماليات التلقي في السرد القرآني، 145، 146.
- 10 ياسين النصير، الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي، ص 27.
- 11 نوري سعودي أبوزيد، في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009، ص 22، 23.
- 12 عدي بن زيد العبادي، الديوان، حققه وجمعه، محمد جبار المعبود، وزارة الثقافة والإرشاد، شركة دار الجمهورية، للنشر والطبع، بغداد، دط، 1965، ص 35.
- 13 الديوان، ص 96.
- 14 الديوان، ص 42.
- 15 الديوان، ص 82.
- 16 الديوان، ص 100.
- 17 نوري سعودي أبوزيد، في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، ص 23.
- 18 الديوان، 50.
- 19 ينظر: نوري سعودي أبوزيد، في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، ص 23.
- 20 الديوان، ص 82.
- 21 ينظر: الديوان، ص 82.
- 22 الديوان، ص 59.
- 23 ينظر: نجلاء نحاحي، فائزة زيتوني، جماليات المطلع وحسن الاستهلال في ديوان الاسلام 'لابن الخلف القسنطيني"، مجلة مقاليد، جامعة ورقلة، مج 07/ع 03/رمضان 1442هـ/أفريل 2021، ص 2، 3.